حول جدل فى الجامعة

للأستاذ عبد الفتاح بدوى

— ٢ —

منذ نشرت مجلة « الرسالة » تقرير الأستاذ أحمد أمين بك عن [الفن القصصى فى القرآن] ، والأستاذ محمد خلف الله يبعث بالمقال تلو المقال تارة يستجدى وتارة يستمدى ، وليس العلم تناصراً ولا استصراخاً فليعلم أن الناس جميعاً علماءهم وفنانيهم لن يغنوا عنه من الحق شيئاً ولامن وقع الحجة وأصابتها مقتله فتيلا وليست شتائمه أساتذته أو غير أساتذته ولا خوضه فى مقاماتهم بالكلام الخبيث ما نعته من صولة البرهان .

ولقد وجهنا إليه فى مقالنا السابق تهمة أولى أنه يجهل المقررات المنطقية التى تجمع عليها العقول ؛ فهل هو مجيب عن هذه التهمة ؟

ووجهنا إليه فى مقالنا السابق تهمة الكذب على الأستاذ الإمام محمد عبده أنه يجرى فى تفسيره على اعتبار أن ما فى القرآن من قصص لا يدل على أحداث وقعت وأقمنا البرهان على كذبه هذا بما نقلنا من نص عبارة المنار .

واليوم نقول للأستاذ خلف الله أنه جهل فهم كلام الأستاذ محمد عبده فى الفقرة التى نقلها فى مقاله المنشور فى ص ١٠٦٨ من مجلة « الرسالة » الغراء ، وأنه جهل المنهج الذى يدرس عليه القرآن الكريم .

يدرس القرآن الكريم على منهجين : الأول منهج [الباطنية] وهم فرقة من الملاحدة يعطلون ألفاظ القرآن عن مدلولاتها ، ويتخذون بها سبيلا تخيلية وهمية توصلا بذلك إلى تعطيل الشريعة الغراء فهم يدعون للألفاظ أو للجمل مراداً عاماً لا ينبنى على أسس علمية وهؤلاء كفار والجرى على طريقتهم كفر وجهالة .

لأن مذهبهم هذا مجرد دعاوى لا تنبنى على شىء من العلم . فهم يقولون مثلا فى تفسير قوله تعالى : [وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين] استقيموا لله وطهروا أنفسكم بالأخلاق الحسنة وكونوا خاضعين ، وليست هناك صلاة شرعية ولا زكاة شرعية ولا سجود ولا ركوع .

والمنهج الثانى : فى دراسة القرآن الكريم منهج المسلمين ، وهو منهج العلم والعقل الذى تقوم عليه نواحى الحياة كلها وليس خاصاً بالقرآن الكريم وحده ؛ ذلك أن الكلام يجب أن يكون لألفاظه مدلولات حقيقية تنصرف إليها تلك الألفاظ ولا يعدل عنها إلا إذا وجدت قرينة تمنع من إرادة تلك المدلولات الحقيقية فأما ترك تلك المدلولات الحقيقية مع عدم وجود تلك القرينة التى تمنع من إرادة الحقيقة فإنما هو فى غير القرآن خبل وجهالة وإذا ادعى شىء من ذلك فى مقام القرآن الكريم فهو خبل وجهالة وزندقة يخرج بها صاحبها عن عداد المسلمين لأنها تعطيل لكلام الله تعالى الذى أنزل لهداية البشر أجمعين .

ومن المسلمين من يقف فى تفسير القرآن الكريم عند هذا الحد لا يتعداه ؛ بل يحمل الكلام على الحقيقة ما أمكن ذلك ثم على المجاز الذى تدل عليه القرينة عند وجودها ، ولا يقولون إن القرآن يشير من وراء هذه الحقيقة أو هذا المجاز إلى شىء من باب الإشارة والإيماء لأن هذه الإشارة وهذا الإيماء لا تدل الألفاظ عليه .

ويقول الصوفيون من المسلمين إن فى القرآن إشارات وإيماء من وراء تلك الدلائل الحقيقية ، وهذه الدلائل الإشارية الإيمائية ملحوظة عند هؤلاء الصوفيين مرعية لديهم حق رعايتها .

فمذهب الصوفية يخالف مذهب الباطنية كل المخالفة لأن الباطنية يعطلون الألفاظ عن مدلولاتها . فهم لا يعتبرون آدم شخصاً ولا الملائكة موجودات ، ولا الجنة شيئاً ، ولا إبليس حقيقة ؛ إنما يقولون فى ذلك كله ما يقول الأستاذ خلف الله إن القرآن فى ذلك لم يتشبث بالواقع ، أما الصوفية فيقولون بأن كل هذه الألفاظ لها مدلولاتها الحقيقية ثم يشير مجموع القصة إلى أمور أخر كالتى ذكرها الأستاذ الإمام فى قوله : وتقرير التمثيل فى القصة على هذا المذهب هكذا : « إن إخبار الله الملائكة بجعل الإنسان خليفة فى الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه إلى آخر ما قال . فمحال أن يكون الإمام قد قصد إلى تعطيل الألفاظ والذهاب مذهب الباطنية .

وإنى ناقل هنا عبارة الأستاذ الألوسى إذ تشرح هذا المنهج وترى الأستاذ خلف الله أنه كان على جهل حين زعم أن من المسلمين من يرى أن القصص القرآنى لا يتصل بالواقع وكان على خطأ لم يفهم به كلام الأستاذ محمد عبده ؛ قال الألوسى : وأما كلام السادة الصوفية فى القرآن فهو من باب الإشارات إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك ، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة ، وذلك من كمال الإيمان ومحض العرفان لا أنهم اعتقدوا أن الظاهر غير مراد أصلا وإنما المراد الباطن فقط إذ ذاك اعتقاد الباطنية الملاحدة توصلوا به إلى نفى الشريعة بالكلية ، وحاشا سادتنا من ذلك ؛ كيف وقد حصوا على حفظ التفسير الظاهر وقالوا : لا بد منه أولا إذ لا يطمع فى الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر ، ومن ادعى فهم أسرار القرآن قبل أحكام التفسير الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب .

والألوسى فى تفسيره ينهج هذا المنهج أبداً فهو يفسر الأسلوب القرآنى على حقائقه اللغوية فإن قامت قرينة على غير الحقائق انصرف إلى المجاز الذى تدل عليه اللغة ؛ ثم يعقب على ذلك كله بتفسير الصوفية فيقول : ومن باب الإشارة ... ويذكر الإشارات الصوفية فى ذلك المقام .

والأستاذ محمد عبده نهج هذا المنهج نفسه ، واختار لنفسه فى المتشابه منهج السلف والأخذ برأى الخلف فيه عند الإمكان وعند الداعية إليه فى فهم الكلام ثم يذكر مذهب الصوفية وهم من الخلف ويقرر مذهبهم الإشارى كذلك ويصرح فى كثير من كلامه بكلمة الإشارة وبكلمة الإيماء ؛ قال فى ص ٢٦٩ من الجزء الأول من المنار . فإذا صح الجرى على هذا التفسير فلا يستبعد أن تكون [الإشارة] فى الآية إلى أن الله تعالى لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التى بها قوامها ونظامها ؛ وجعل كل صنف من القوى مخصوصاً بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ولا يتعدى ما حدد له من الأثر الذى خص به خلق بعد ذلك الإنسان وأعطاه قوة يكون بها مستعداً للتصرف بجميع هذه القوى ...

وقال صاحب المنار فى تلك الصفحة نفسها : « وأقول إن غرض الأستاذ من هذا التأويل الذى عبر عنه بالإيماء وبالإشارة إقناع منكرى الملائكة بوجودهم . وكان مساق هذا الكلام كله بعد عبارة طويلة نقلها من كلام الغزالى فى الإحياء . فهو إذن بيان لمذهب الصوفيين .

فمن الافتيات على الأستاذ محمد عبده افتياتاً جريئاً فيه عدم الاستحياء من الحق ما قاله الأستاذ محمد خلف الله عن الإمام محمد عبده إذ ينسب إليه أنه يرى أن القصص القرآنى لا يلتزم الواقع أو أنه جرى مع أحد هذا المجرى وذهب معه هذا المذهب الذى يدعيه .

ولقد حاولت أن ألتمس للأستاذ خلف الله بعض المعاذير ، ولو أوهاها فى التورط فيما تورط فيه فتمنى سلوكه ، وحالت بينى وبين ذلك خلائقه ؛ ذلك أننى وجدته مدلساً فى النقل خائناً للأمانة العلمية فهو يكذب فى النقل أو يبتر المنقول ولا يتمه بل يخفى منه ما يبين المراد تمويهاً للحقيقة وإلباساً على الناس .

لقد قال فى ص ١١٢٢ من مجلة « الرسالة » الغراء : ويؤكد الرازى هذا الأمر فى مناسبات أخرى حين يجعل أحياناً كلمة « بالحق » التى ترد كثيراً فى القرآن بعد القصص وصفاً لما فى القصة من توجيهات دينية فهو مثلا يقول عند تفسيره لقوله تعالى : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » ما يأتى : (أما الحق فهو إشارة إلى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة) .

وإنى ناقل عبارة الفخر الرازى بنصها شاهداً على تدليس الأستاذ محمد خلف الله فيما ينقل من عبارات العلماء قال الفخر قوله تعالى : (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) اعلم أنه تعالى لما ذكر القصص الكثيرة فى هذه السورة ذكر فى هذه الآية نوعين من الفائدة أولهما تثبيت الفؤاد على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى ، وذلك أن الإنسان إذا ابتلى بمحنة وبلية ، فإذا رأى له فيه مشاركا خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة إذا عمت خفت ، فإذا سمع الرسول هذه القصص وعلم أن حال جميع الأنبياء صلوات الله عليهم مع أتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه . والفائدة الثانية قوله : وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين . وفى قوله (فى هذه) وجوه

أحدها فى هذه السورة . وثانيها فى هذه الآية . وثالثها فى هذه الدنيا ، وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع ، واعلم أنه لا يلزم من تخصيص هذه السورة بمجىء الحق فيها أن يكون حال سائر السور بخلاف ذلك لاحتمال أن يكون الحق المذكور فى هذه السورة أكمل حالا مما ذكر فى سائر السور ، ولو لم يكن فيها إلا قوله تعالى فاستقم كما أمرت لكان الأمر كما ذكرنا ، ثم إنه تعالى بين أنه جاء فى هذه السورة أمور ثلاثة : الحق والموعظة والذكرى . أما الحق ، فهو إشارة إلى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة ؛ وأما الذكرى فهي إشارة إلى الإرشاد إلى الأعمال الباقية الصالحة ؛ وأما الموعظة فهى إشارة إلى التنفير عن الدنيا ... اهـ

فالفخر الرازى ليس فيه شىء مطلقاً لا من قريب ولا من بعيد مما نسبه إليه الأستاذ محمد خلف الله فرية واختلاقاً ، فالفخر يجعل اسم الإشارة راجعاً إلى السورة ، يعنى سورة هود ، ويجعل الحق الذى فيها هو الدلائل الدالة على التوحيد ، ولعل عند الأستاذ خلف الله ، أو الذى كان يشرف معه على رسالته نسخة خطية خاصة من كتاب الفخر الرازى عملت لها فقط وخط لها فيها ما يشاء ان ؟ ما هذا يا أستاذ ؟ وما هذه الخيانة فى العلم ؟ !

ومثال البتر فى النقل ما قاله الأستاذ خلف الله فى نفس الصفحة إذ نقل قول الفخر الرازى عند تفسير قوله تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) الأول أنهم كلما سمعوا شيئاً من القصص قالوا ليس فى هذا الكتاب إلا أساطير الأولين ولم يعرفوا أن المقصود منها ليس هو نفس الحكاية بل أمور أخرى مغايرة لها)

والفخر الرازى قال ذلك ولكنه أتم كلامه فقال فى شرح تلك الأمور « فأولها بيان قدرة الله تعالى على التصرف فى هذا العالم . وثانيها أنها تدل على العبرة . . وثالثها أنه صلى الله عليه وسلم لما ذكر قصص الأولين من غير تحريف ولا تغيير مع أنه لم يتعلم ولم يتتلمذ دل ذلك على أنه بوحى من الله . . الخ

فكلام الرازى صريح فى أن القرآن لا يذكر القصة لأنه كتاب تاريخ بل يذكرها لما فى ذكرها من الفوائد التى ذكرها وكلام الفخر الرازى صريح فى أن القرآن لم يحرف فى القصص ولم يغير وكان ذلك دليلا على أنه بوحى من الله .

أما دعوى الأستاذ خلف الله فهى أن القصص القرآنى لا يتشبث بالواقع وإذن فلابد له من التدليس فى النقل ليتوهم القارىء أن للكلام الذى يقوله الأستاذ خلف الله أصلا فى كلام السابقين

صارت الصفات التى يتمتع بها الأستاذ خلف الله فى مقاليه فى الرسالة ثلاث صفات الجهل والكذب والخيانة .

وإذا كان للكانون عند العرب ثلاث أثافى فإن كانون الأستاذ خلف الله له أربع أثافى تلك الثلاث التى مضت وسنرميه بالرابعة .

ولقد كان يمكننا أن نرميه بها بادىء ذى بدء بعد أن حصلنا على ما حصلنا عليه ولكنا آثرنا أن نقدم بين يدى ذلك جهله وكذبه وخيانته ، ثم نقيم عليه الحجة والدعوى معاً

لقد وقعت الرسالة فى أيدينا وقرأناها كما قرأها سوانا ولكم الويل مما تصفون . لكم الويل فانتظروه فى الأعداد القوادم وفى ساحات القضاء .

عبد الفتاح بدوى
كلية اللغة العربية

بادر باقتناء نسختك
قبل نفادها من كتاب
فى أصول الأدب
محاضرات ومقالات فى الأدب العربى
للاستاذ أحمد حسن الزيات
يطلب من دار الرسالة ومن المكتبات الشهيرة
وثمنه ٢٥ قرشاً عدا أجرة البريد